ثقافة المبلّغ

الشيخ جعفر المهاجر

يحسُن بي قبل أن أبدأ كلامي، بل وكل كلام يُقال في مثل هذا المجمع، أن أقول أول ماذا أقصد من العنوان. وهو لحسن الحظ، من كلمتين.

أما كلمة (ثقافة) فقد درجنا في لغة الصحافة التي وجّهت وقادت لغتنا منذ أوليات هذا القرن على أن نطلقها حين يكون الفرد لنريد بها مجموعة العلوم والمعارف والخبرات التي يتلقاها المرء تلقّياً مدروساً ومقنناً في الطريقة ولامادة ابتغاء بناء عقله وإعداده لما يرجوه لنفسه، أو يرجوه مجتمعه له. وهو إطلاق غير دقيق. ولكنه بعد أن فرضته لغة الصحافة، غدا دارجاً ومقبولاً. بحيث أن المتكلم والمخاطب كلاهما لا يجد صعوبة في إفهام وفهم هذا المعنى منه. وذلك غاية ما ترجوه الكلمة. هذا فضلاً عن أنني أجده مناسباً للمشكلات التي يطرحها المؤتمر. وبما هو أكثر تحديداً، للمشاركة التي اقترحتها على إدارته.

وأما (مبلِّغ) فهي كلمة لا تحتاج بيننا إلى تعريف. على الأقل لأننا نلتقي هنا تحت لوائها. ومع ذلك فإن عندي ما أجد من الضروري قوله عليها.

إن إبلاغ الناس كلمات ربنا سبحانه وتعالى هي وظيفتنا. والحقيقة أنها وظيفة كل فرد من الأمة الشاهدة، التي جعلها المولى جل وعلا وسطاً بين خاتمة الرسالات وبين الناس،كل الناس ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكون على شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة/ 143) لكن البلاغ والإبلاغ ليس وظيفة مطلقة، يعني لا يصيبها التبدّل والتغيّر بحسب المكان والزمان، وأيضاً ليس وظيفة محددة ومحدودة، أعني ليس موجهاً إلى شريحة لا يتعدّاها من الناس المؤمنين، يكفيها أن تتلقى الفتوى والموعظة وفض الخصومات عند اللزوم، كما علّمتنا ضمناً الحوزات التي أعدّتنا، وفق مناهج لا تتغير ولم يتغير منذ قرون. وبذلك حاصرتنا ضمن أسوار نعجز عن تخطّيها. وعلينا أن نبحث في هذا عن السبب في أننا لا نجد منّا إلا نادرةً جداًقلة ممتازة تنجح في تحقيق اتصال إيجابي ونافع خارج تلك الشريحة. ولا ريب في أن هذه القلة الممتازة مدينة بنجاحها الاستثنائي، لما تتمتع به من مواهب شخصية، وإلى كدح أفرادها في إعداد أنفسهم إعداداً خاصاً ومتيّزاً، بالقياس إلى النمط العام. نتيجة استيعابها الصادق لمقتضيات الساحة الفارغة، الغطشى إلى العاملين.

لا مراء في أن المبلّغ يواجه في لبنان شروطاً، ربما صح القول إنها فريدة، أو على الأقل يعزّ نظيرها. فهذا البلد كتب عليه موقعه الجغرافي وتركيبته البشرية أن يكون الشرق العربي المسلم ظهيره. بكل ما تعنيه كلمة شرق من أفكار وعقائد ورؤى وأهداف حياة. لكن وجهه، وجزء لا يستهان به من عقله ووجد أنه مُندار صوب الغرب. يكفي لكي نرى آثار هذه التركيبة البالغة التعقيد، كأبسط ما يكون وأوضح ما يكون، أن نتأمل في أمرين:

- في المناهج التربوية المعمول بها في مدارسه ومعاهده.
- في الشبكة الإعلامية – الترفيهية الضخمة، أو بالأحرى المتورمة، التي تغطيه، وتدخل بيوتنا دون إذن، مع مقارنتها بمثيلتها في الأقطار العربية والإسلامية. حيث سنرى واضحاً

الظهير والوجه اللدودين في صورة واحدة وعلى صفحة واحدة. ومعلوم أنه في هاتين المؤسستين تُبنى عقول الناس، والمعايير التي توجّه سلوكهم والأهداف التي تحفزهم. إلى كل ما يتصل بالمضمون العقلي والأخلاقي والنفسي. وكلام لا طائل منه أن نتحدّث عن عمل تبليغي ذكي ومستوعب، دون أن نأخذ هذه الأرضية في اعتبارنا. وأبعد منه عن الصواب، أن يعتقد أحدنا أنه هو، أو روّاد مسجده، أو المستمعين إلى موعظته، أو المتلقّين لفتواه، وحتى أبناءه وأفلاذ كبده، في منجى من التأثير البالغ السوء لهذه الشبكة الهائلة، المسلّحة بكل ما في جعبة الشيطان نفسه. ولكم رفعت الهيئات الدينية عندنا صوتها محذّرة منذرة من مغبّة زرع العنف في نفوس الناشئة، ومن مغبّة هذا التسعير المجنون لشهوات الجسد، فما استجيب لها. وكيف يُستجاب لها وهي التي تركت هيكل نفوس أبنائها للصيارفة والتجار. وكان الأجدر بها، إلى جانب مطلبها المحق بتوجيه الترفيه أن نستفيد وتُفيد من الإمكانات الهائلة لتي يتيحها هذا المرفق.

إن التبليغ هو عمل تشكيلي موضوعه الإنسان. وأحبّ إلي وأرضى لرغبتي في التعبير الدقيق أن أقول تنظيمي. لولا أنني أخشى أن يُساء فهم ما أريد، وأن نخترق الحدود الفاصلة ما بين العمل السياسي والعمل التبليغي. ولا مُشاحة الأمر. فالتبليغ هو تشكيل للإنسان من داخله، وتنظيم المجتمع من ظاهره.

والمتأمل في سير السادة المبلّغين تأمل عارف، منذ أولهم وسيدهم، يروعه التنوع الهائل في الوسائل التي اعتمدوها في سبيل أداء الرسالة. مجتازين مل ما يخطر بالبال من صنوف التضييق والقمع والإرهاب. حتى ليكاد يقول إنهم لم يتركوا وسيلة تصلهم بالناس، ولا سبيلاً يوصلهم إليهم، ولا جسداً يعبرونه نحوهم، إلا سلكوه. من القيادة المباشرة في السلم وفي الحرب، إلى الشهادة المدوّية إلى نشر المعرفة المستقيمة والتصدي للتيارات التحريفية، انتهاء بالعمل السرّي التنظيمي. الذي بدأه ووضع له القواعد ثامن الأئمة الإمام الرضا عليه السلام. وربما يعود الفضل في وضع بذوره الأولى إلى أبيه الإمام الكاظم عليه السلام. وهو عمل رائد ومجهول حتى بين أهله. تضمّن فيما تضمّن غطاً متقدماً بمقاييس ذلك الزمان لشكل من أشكال الضمانات أو التقدمات الاجتماعية للمؤمنين.

وإنني لأرجّح أن العمل بخمس المكاسب، كما لا يزال سارياً حتى اليوم في الدراسة والممارسة الفقهية، قد حدث في سياق هذا التطور الأخير لحركة الإمامة والإمامة الحركية، في سبيل تمويل العمل التنظيمي بما فيه من تقدمات اجتماعية. وذلك درس حقيق بنا أن نقرأه ونستعيده لكامل العناية. يقول لنا، فيما يقول، إن التبليغ هو أيضاً يد ممدودة بالعون، وسد خلّة وخدمات نافعة. والأمثال على ذلك غير عزيزة مع سيرة من نقتدي بهم، حتى في السياسة النبوية. والوقت لا يتسع لتفاصيل.

ولننظر فيما تؤديه الكنائس في الضرب في هذا المجال. رغم وجود أنظمة التأمينات الاجتماعية والشاملة هناك. ولا عيب في أن نتعلم ما يُرضي الله وينفع العباد.

المسجد هو حصن العمل التبليغي. وسيبقى إن شاء الله. والمسجد أنبت إلى جانبه، أو خلفه بقليل، الحوزة والحسينية. وها إن المدرسة التي تواكب المسجد قد بدأت عندنا، وها هي تنتشر بسرعة إدارة تربية وتبليغ معاً. على الرغم من أنها لم تتحرر نهائياً من القيم التربوية والمشوّهة. وهذا كله تطور إيجابي. علينا أن نلتقط مغزاه. ونحن نتحصّن في العمل التبليغي مادة وأسلوباً وميداناً.

والفقه هو علم علومنا. فيه التعبير الحر والنقي عن ذاتنا وهويتنا. ومجمع الأنهر الذي ترفده كل العلوم وسيبقى ويجب أن يبقى كذلك.

لكن هذا كله كلام في الأساس. ولستأعتقد أن الأساس هو محل نقاش عند أحد. وأنا إنما اذكر واذكِّر بهاتين الحقيقتين، لأخلص منهما إلى انتشار المسجد المؤسسة، وقدرة الفقه على الاحتواء، هما سابقتان قائمتان بالفعل، وأن علينا أن نتابع. والشأن كل الشأن، بعد هو في الوسيلة.

قلنا إن الشروط التي نواجهها في لبنان هي استثنائية من جهة ما تُلقيه على المبلغ من عبء. وقد ألمحنا إلى عوامل ذلك قبل قليل. لكن هذا ليس إلا النصف الأسوأ من الحقيقة، أو النصف الفارغ من الكأس. لكن الحقيقة أيضاً أن في هذا البلد ايضاً مناخ من الحرية، لا يتمتع به المبلّغ في أي مكان آخر من المحيط. هنا في رأس وفي أبسط الاعتبارات، المبلِّغ حر، وليس موظفاً صغيراً في مؤسسة رسمية تعمل على استيعابه. هنا في وسع العمل التبليغي إذا نظّم نفسه أو نُظّم في إدارة كفوءة حسنة الإدارة، أن يخاطب الناس قولاً وعملاً بما لا حصر له من الوسائل. من الكلمة المكتوبة بكافة أشكالها، إلى الإذاعة المسموعة والمرئية إلى المدارس والمعاهد إلى مؤسسات الخدمات الاجتماعية التنوعة. وكلها مما تتيحهالقوانين المعمول بها وبشروط غير معجزة. وبعضها ميسرة. بل إن بعضها مما يمكن أن يتلقّى معونات ومنحاً لا يستهان بها من الدولة. ونحن مسبوقون كثيراً في هذا الميدان في بلدنا. ناهيك بغيره من البلدان. والعارف بحجم وتأثير المؤسسات الكنسيّة في الغرب في كل هذه الميادين يفهم جيداً ما أعني.

تأسيساً على ما قلناه. تأسيساً على الضرورة وتأسيساً على القدوة الحسنة وتأسيساً على الإمكانية. وكلها مما أشرنا إليه بقدر ما يتسع له المقام. هل يمكننا أن نبدأ الكلام على ثقافة المبلغ؟ بالمعنى الذي ارتضيناه وتراضينا عليه لكلمة (ثقافة). أي إعداد المبلّغ لما يرجوه أو يُرجى منه. هل يمكننا أن نطرح مبدأ الانتشار في الميادين الممفتوحة أمامنا؟ فنتحدّث في المبلّغ المربي، والمبلّغ الكاتب والمبلّغ الإعلامي والمبلّغ المختص في هذا الفرع أو ذاك من صنوف الخدمات الاجتماعية. نعم، ويجب.

لماذا نحشر أنفسنا جميعاً في زاية واحدةتاركين بقية الميادين فارغة؟ أنا أعرف لماذا وربما كان الأكثر يعرف. إنه غياب الإدارة المنظِّمة والمنظَّمة. إنه الحوزة ذات اللون الواحد، وكأنها آلة صمّاء عمياء لا تنتج إلا لوناً واحداً لا تتعداه.

إن عدد المعمين في لبنان يقترب بسرعة إلى الألف. واعتقد أنه سوف يتجاوز هذا الرقم بكثير في السنوات القليلة القادمة. الأمر الذي يرسم علامة استفهام ضخمة حول المستقبل.

أين سيجري استيعاب هذا العدد وطيف، بشكل يحفظ كرامة أفراده، ويضمن لهم عيشة مطمئنة، وينفع بها؟

الجواب الوحيد لا يعدو ما قلناه، اي في الانتشار في تلك الميادين. وقبل ذلك هو في إعداد المبلّغ إعداداً جديداً يتناسب مع مقتضيات المستقبل. إنني أدرك جيداً ان ما أقوله يتضمن وضعاً ثورياً. ابتداءً من مفهوم الحوزة وانتهاءً برؤيتنا لأنفسنا ووظيفتنا في مجتمعنا. والباقي أمور إجرائية تنفيذية. ولكنني لن ألج الآن من هذا الباب. فهو يستحق بحثاً مستقلاً.